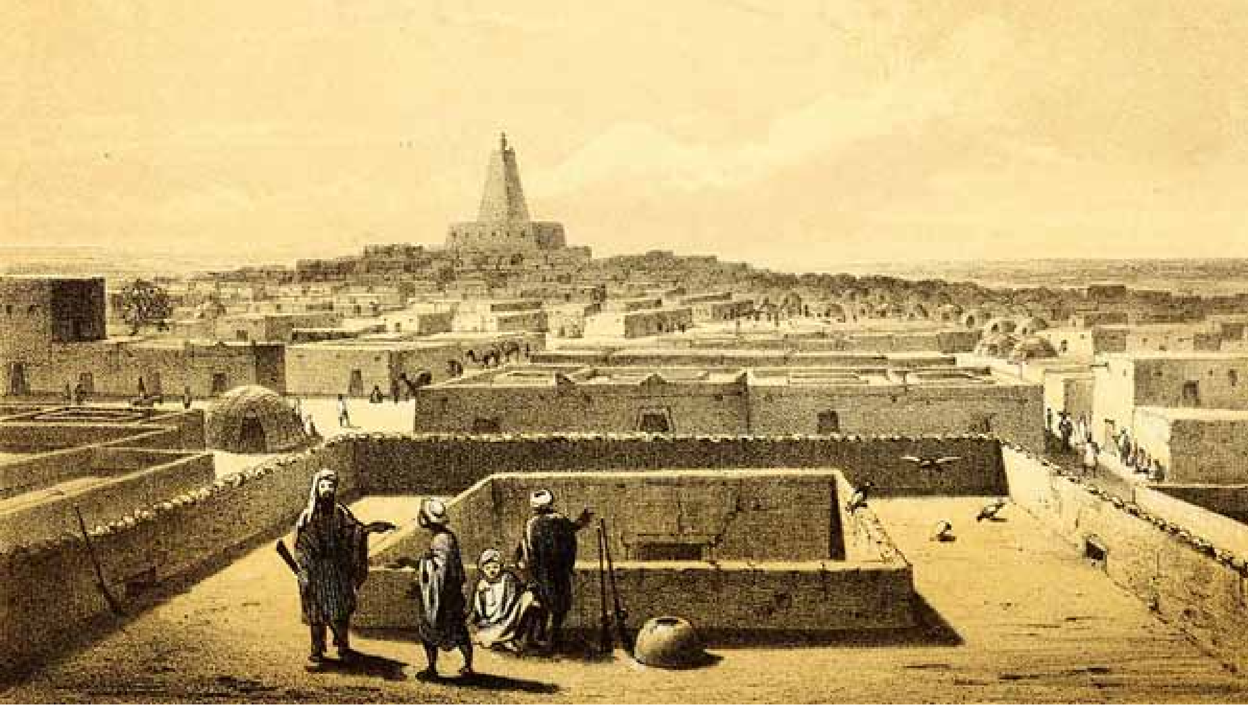

الاستشراق الفرنسي بإفريقيا:

قراءة نقدية لمرتكزاته وأهدافه

أ.د. نفيسة دويدة

أستاذة التعليم العالي في التاريخ المعاصر - بالمدرسة العليا للأساتذة- ببوزريعة- الجزائر

فتحية بن حميمد

طالبة دكتوراه في التاريخ المعاصر - جامعة الجزائر - بوزريعة - الجزائر

يُعَدُّ البحث في موضوع الاستشراق بصفةٍ عامّةٍ راهناً متجدّداً، تقتضيه التحوّلات المتسارعة بين العالَمَيْن الشرقي والغربي، ولذلك فهو يتضمّن جوانب وخلفيات عدّة، تتمايز حسب الرؤية والتصورات المسبقة للباحث، وأيديولوجيته الفكرية والثقافية، بالإضافة إلى المناحي المقصودة من الدراسة (إن كانت أدبية، اجتماعية، تاريخية أو علمية... وغيرها)، كما أنّ انتماء الباحث منهجيّاً ومستواه العلمي يؤثّران بصفةٍ غير مباشرةٍ على مسار العمل البحثي.

وعليه؛ نحاول في هذه الدراسة تقديم تعريف موجز بالاستشراق الفرنسي، وتبيان ظروف ظهوره، وأهدافه، وتقديم قراءة نقدية في مرتكزاته ودواعي اهتمامه بالقارة الإفريقية. وعلينا الأخذ في الحُسبان أنّ الجزءَ الأوّل المرتبط بـ«وظيفية الاستشراق» قد حظي بالتنوّع والكثرة في الدراسات الأكاديمية؛ أما الجزء الثاني المتعلق بحضوره في إفريقيا (ولاسيما منطقة جنوب الصحراء)؛ فإننا نسجّل نقصاً بشأنه، وهذا تحديداً ما حَدَا بنا إلى محاولة الإسهام في الموضوع وفق ما توفّر من مادة معرفية متاحة.

ويمكن بدايةً طرح المنطلقات الافتراضية للإشكالية البحثية المطروحة، والمتعلقة أساساً بدَور الاستشراق الفرنسي بإفريقيا، وتوجيه القارئ إلى بضعة تساؤلات نراها جوهرية؛ مثل: (ما جدوى البحث في موضوع الاستشراق في وقتنا الراهن؟ وهل تندرج إفريقيا جنوب الصحراء ضمن النطاق الرئيسي لدائرة الاستشراق الفرنسي؟ وإلى أيّ مدًى نجح المشروع؟)، خاصّة في ظلّ شحّ المادّة المتعلقة بذلك.

مفهوم الاستشراق:

في البداية؛ يمكن القول بأنّ الكثير من الدراسات العلميّة قد اتفقت على أنّ المعنى الاصطلاحي للاستشراق Orientalism يُقصد به: ذلك العلم الحديث الذي يدرس فيه الغربُ مسائلَ الشرق وعلومه ودياناته، ويعتني بتحليل تاريخه، وفَهْم تقاليده، وتفكيك بناه الفكرية والثقافية[١].

وقد تحوّل المفهومُ في الفترة المعاصرة (خاصّةً في القرنَيْن ١٨ و١٩م)، واتخذ أبعاداً واتجاهات سلبيةً خطيرة؛ لأنه ارتبط بالظاهرة الاستعمارية، وأصبح ملازماً لها، وفي خدمتها، وما انفك بعض الباحثين والمنظّرين أن قسّموا مراحل نشوء الاستشراق وفق ذلك إلى ثلاث مراحل، هي:

- **المرحلة الأولى: الاستشراق الاستعماري** Colonial Orientalism: امتدت من ظهور المصطلح إلى غاية سنة ١٩٦٠م.

- **المرحلة الثانية: الاستشراق ما بعد الاستعماري** Post Orientalism: ركزت فيها الدراسات الاستشراقية على الجوانب اللغوية والثقافية.

نجح الاستشراق الفرنسي في دراسة كلّ مقوّمات الشخصية للشعوب الإفريقية، من لغةٍ وعاداتٍ وتقاليد، سعياً لفصلهم عن ماضيهم وحضارتهم، ولتكريس إدماجهم بالثقافة والحضارة الفرنسية الغربية

- **المرحلة الثالثة: الاستشراق الجديد** New orientalism: وهي مرحلةٌ قصيرةٌ نسبيّاً، ارتبطت بظهور العولمة والتقنيات التكنولوجية[٢].

أما بالنسبة للاستشراق الفرنسي؛ فإنه فعلاً تميّز بخصوصيات عدّة؛ جعلته يحظى باهتمام الباحثين والدارسين، لعلّ أولها هي ارتباطه تاريخيّاً بتحولات الرأسمالية الفرنسية، وتغيّر أنماط الحكم مع بروز الدولة القوميّة، ومحاولة التخلّص من مشكلات هذه الأخيرة عن طريق بناء الدراسات الاستشراقية ودعمها، ومن ثَمّ توجيه أنظار العالم والفرنسيّين إلى جدوى الانفتاح على الآخر (الشرق) في اتجاهات مختلفة ذات طابع نفعيٍّ بحت، واقتحام تلك الخصوصيات المحلية للمجتمعات المغلوبة، ومن ثَمّ خدمة مصالحه.

وشكّلت الثورة الفرنسية الكبرى (١٧٨٩م) محطةً مهمّة؛ أبانت عن دَور السياسيّين في تحويل الانتكاسة إلى حركة إيجابية تحت مسمّيات عدّة، كاستثمار التراث العالمي وغيره، وكانت نقطة التحوّل الحاسمة في مجال تكريس دَور الاستشراق مع الحملة الفرنسية بقيادة «نابليون بونابارت» Napoléon Bonaparte على مصر والشام سنة ١٧٩٨م[٣].

(١) انظر مثلاً: إدوارد سعيد: الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة. محمد عدناني، دار رؤية للنشر، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص١١٠.

(٢) المبروك المنصوري: الدراسات الدينية المعاصرة من المركزية الغربية إلى النسبية الثقافية: الاستشراق، القرآن، الهوية والقيم الدينية، الدار المتوسطية للنشر، تونس، ٢٠١٠م، ص٥٢.

(٣) يرى الباحث الفرنسي روبير مونتران Robert Montran أنّ العقد الأخير من القرن الثامن عشر

إنّ الخلفيـة التاريخية لتفسير ظهور الاستشراق الفرنسي بصفة عامّـة (والموجَّه إلى إفريقيا بصفة خاصّة) تستدعي- في رأيي- فَهْمَ مجمـل المسـارات التي تمخّضت عـن استمرار الصـراع الإسلامي- المسيحـي، والممتـد عمليّـاً منذ أيـام الحروب الصليبيـة، وانكماشه قليلاً في فترة العصـور الوسطى، ومعاودة ظهوره في الفترة الحديثة، والمزامن لنشوء السلطنة (والخلافة) العثمانية.

ومـن جهة أخـرى؛ لقد سهّلـت علـوم النهضة فـي أوروبا خلال القرنَيْـن ١٥ و١٦م القيام بالحملات الاستكشافية الغربية؛ التي جابت البحـار والمحيطات في رحلة بحثها عـن التوابل والحرير، والتي كانت تحركها تـارةً روحُ المغامرة وحبُّ الاستطـلاع والاستكشاف، وتدفعها تـارةً أخرى الرغبةُ الدفينةُ فـي كسر شوكة المسلمين، ومن ثَمَّ تحقيق المكاسب الماديـة والتفوق العسكري والسياسـي، وهكذا بدأ التنافس الشرس واللامحدود بيـن الإمبراطوريات الاستعماريـة، كالبرتغالية والإسبانية والهولندية والإنجليزية والفرنسية.

وأصبـح مـن الواجـب دعـم الحركـة التجاريـة الناشئـة، على السواحـل الإفريقية والآسيوية والأمريكيـة، بالقوى العسكرية الحامية التي تكفل الدفاع عن المصالح والمكاسب المحقّقة، ووجد الاستشراق في هذه المرحلة فرصـاً مهمّة للاطلاع على الأنماط المعيشية لشعوب تلـك المناطق، والوقوف بتأمّل على ثقافاتها ومستويات تفكيرها، ومن ثَـمّ فَهْم آليات التعامل معها؛ فكثّـف المستشرقون نشاطهم، ودعمتهم الحكومـات، وتقاطعـت أدوارهـم مـع أطـراف أخرى لضمـان خدمة المشروع الاستعماري.

وبالنسبـة لفرنسـا؛ فلـم يكن مـن السّهـل لهـا أن تستحوذ على مناطـق وأقاليـم مهمّة فـي آسيا وأمريكا؛ نظراً لتقاسمهـا بين باقي القـوى (وبالأخصّ بعـد السيطـرة الإنجليزيـة عليها)؛ لذلـك فإنها (أي: فرنسـا) ركـزت جهودهـا فـي القـارة الإفريقيـة، وعملت على إزاحة خصومها ومنافسيها مـن البرتغاليّين والهولنديّين بها، وتكللت جهودها ببسط النفوذ على أغلب السواحل الشمالية والغربية لإفريقيا، وكذا على كامل الساحل الشمالي، ومنطقة جنوب الصحراء في شريط متّسع إلى الداخل.

وعقب انتهـاء مرحلة الكشوف الجغرافية؛ بـدأت مرحلة التوسّع التجـاري والاستنـزاف المادي للأقاليـم والمناطـق الإفريقية، والتي تحققت فيهـا المساعي الفرنسيـة بواسطة الغزو العسكـري، وبإقامة الحاميـات والقـلاع والموانئ، ومـن ثَمّ التوغـل نحو الداخـل والعمق الإفريقي بالتدريج طيلةَ القرنَيْن ١٨ و١٩م[١].

ولـم يكد القرن العشرون يحـلّ حتى انتقلـت السياسة الفرنسية بإفريقيـا إلى مرحلتهـا التالية، وهي السيطرة علـى العنصر البشري وتطويعـه واستغلاله. وكان مـن أبرز الوسائل التـي استعانت بها، إلى جانـب تواصل مهـام المستشرقيـن، هو الاعتمـاد علـى المُنَصِّرين، وإعـادة تفعيـل دَور الكنيسـة المسيحيـة الكاثوليكيـة، متخـذةً شعار «الوحدة تحت لواء الصليب».

دواعي الاهتمام بإفريقيا:

يمكـن الإشارة إلـى أنّ دواعي اهتمام فرنسـا بإفريقيا- كما سبق القول- ظلّت قائمةً على عدّة جوانب أساسية؛ مثّلت الأرضية في نشاطها بها طيلةَ قرون متواصلة، **ولعلّ من أبرز تلك الأهداف ما يأتي:**

١- توطـدت الصلات بين الشرق وإفريقيـا بصفة عامّة وفرنسا بواسطـة النشـاط التجاري، وعـن طريق تبـادل السفـراء والقناصل أحيانـاً، وتوالـي الرحـلات الفرنسية، ثـم احتلال الشمـال الإفريقي وحملـة نابليون على مصر، والتي حـدّدت العلاقة الجديدة بين الشرق والغـرب، إضافـةً إلى النفـوذ الفرنسي فـي سوريا ولبنـان، وفي هذا الصـدد يقول الباحث محمـد محمد حسيـن: (إنّ الحافـز الأساسيَّ لتكويـن الإمبراطورية الاستعماريـة الثانية هو- فـي اعتقادنا- حافزٌ أدبـيٌّ لردّ اعتبار فرنسا؛ فغزو الجزائر سنة ١٨٣٠م كان ردَّ فعل متوقّع لفقـدان فرنسا جزءاً مـن مستعمراتها فيما وراء البحـار، ثم لهزيمة نابليـون سنـة ١٨١٥م. وغزو تونس سنـة ١٨٨١م كـان ردَّ فعل لهزيمة نابليـون الثالث سنـة ١٨٧٠م. ونجـد انعكاس هذه الـروح في عبارات التفاخر التـي كانوا يطلقونها على إمبراطوريتهـم، فَهُم تارةً يسمّونها

الميلادي بمثابة الانطلاقة الحقيقية للدراسات الاستشراقية بفرنسا، وأنّ الاهتمام بالمؤلفات الشرقية حقيقةً قد بدَا واضحـاً في المصنف الشهير المعنون: (وصف مصر)، والذي صدر عن العلماء الذين رافقوا نابليون بونابارت في حملته على مصر، وكان البوابة الأولى للشروع في حركة الترجمة من اللغة العربية إلى اللغة الفرنسية.

انظر: يوهان فوك: تاريخ حركة الاستشراق: الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن ٢٠م، ترجمة. عمر لطفي العالم، دار المد الإسلامي، ليبيا، ٢٠٠١م، ط٢، ص١٢٥.

وكـذا: Alfred Le Chatelier: La conquête du monde musulman, ed. Leroux, Paris, s.d, p.72-73.

(١) Fernand Rouget : L'expansion coloniale au Congo français, ed. Emile Larose, Paris , 1906.

«فرنسا ذات المائة مليون من السكان»، وتارةً «فرنسا الممتدة في بقاع العالـم الخمسة»، وتارةً «فرنسا العظمـى». وكان الرأي العام الفرنسي يقـاوم بـكلّ قوة منح الاستقـلال للمستعمرات؛ ظنّاً أنـه إذا لم تستمر فرنسـا في مكانها بين الإمبراطوريـات الاستعمارية؛ فسوف تنزل إلى دولة من الدرجة الثانية أو الثالثة)[١].

٢- القـرب الجغرافي بيـن فرنسا والقـارة الإفريقية، والحفاظ علـى المكتسبات السابقة المتمثّلة فـي مستعمراتها بالشمال الإفريقي (الجزائـر ثم تونس، وموريتانيا والمغـرب الأقصى لاحقاً)، فكان من الحتميّ ربط تلـك المستعمرات في الشمال والجنـوب بعضها ببعض؛ وفـق أنظمـة مدروسـة، كـان للاستشـراق الـدّور الأبرز فـي وضعها وتهيئتها.

٣- غنَـى القارة الإفريقية الاقتصـادي بالموارد الخام، وتوفّرها علـى طاقـة بشرية مهمّـة، من شأنهـا سدّ الحاجـة إلى اليـد العاملة الرخيصـة، ومَثَّل نظام الرِّق والعبودية طريقـاً ميسوراً ضمن التجارة الثلاثية بين أوروبا وإفريقيا وأمريكا؛ مكّن هؤلاء من إنعاش أسواقهم، ودعم تجارتهم.

٤- التأثيـر في الرأي العام الداخلي بفرنسا وخارجها، وإقناعه بجـدوى تلـك الجهـود الاستشراقية ما دامـت ستكفل رفاهيـة الفرد والمجتمع الفرنسي.

مرتكزات الاستشراق الفرنسي بإفريقيا:

إنّ عمـل الاستشـراق الفرنسـي لـم يكـن متيسّراً؛ لـولا تضافر الجهود الرسمية وغير الرسمية لإنجاح المشروع الكولونيالي الفرنسي في المنطقـة، وإحكام القبضة على خيراتهـا. وكانت مرتكزات العمل الاستشراقـي بإفريقيـا قائمـةً علـى عـدّة مستويـات متكاملـة الأداء والمسؤوليات؛ تمثّلت أساساً فيما يأتي:

١) توظيف الحركة العلمية «التفوقية»:

لقد لجأت فرنسا مباشرةً، بعد انتشار المدّ الثوري ابتداءً من سنة ١٧٨٩م، واستقـرار أنظمتها السياسيـة المتعاقبة، إلى محاولة اللّحَاق بالركـب العلمي في أوروبا، وأبدت الاهتمـام بأنواع البحوث المختلفة، ومنها علـى الخصوص تلك التـي تندرج بصفة مباشـرة باهتماماتها الراهنة فـي المستعمـرات (مثل: البحـوث الطبيـة والأنثروبولوجية، والجغرافيـة، والأثريـة، واللسانيـة، والنفسيـة، والسوسيوثقافيـة.. وغيرهـا)، وبالطبـع فإنهـا حاولت توجيـه تلك الجهود إلـى ما يخدم سريعـاً مصالحها، ووفق الأيديولوجية المناسبـة التي اقترحتها قبلاً الفئات المستشرقة من الضباط العسكريّين والمحقّقين وآباء الكنيسة وغيرهم[٢].

إنّ المدخـل الأساسـي للاستشراق الفرنسـي بإفريقيا تمثّل في مواكبـة منحى تلـك النظريات العلميّة «الوهميـة»، التي مفادها إثبات تفـوّق الإنسان الأوروبي أو الأبيض، وإبراز مـدى تحضّره ونقاوة أصله أمـام الأجناس الأخـرى، وباتت المهـام الحضاريـة المنتظرة للقوى الأوروبية أكثر من ضروريّـة في الأوساط الإفريقية؛ التي باتت جاهزةً تماماً للعمل بعد مرورها بمراحل التدجين والتطويع.

وقـد حرصـت فرنسا على إثـارة وتبنّي هـذا المبـدأ العنصري المقيـت؛ فوجّهـت الدراسـات الاستشراقيـة المختلفـة إلـى إيجـاد الفـوارق العِرْقية والأنثروبولوجية، وغيرها، بيـن الأوروبيّين والشعوب الإفريقيـة[٣]، واستمـرت هـذه الأفكار إلـى غاية اليوم، حتـى في ظلّ حصول مستعمراتها علـى الاستقلال السياسي، حيث عانت منها عدة دول، ولم يكن من الهيّن التخلُّص منها، والنماذج في هذا الإطار أكثر من أن تُحصى.

٢) مبـدأ التـأريخ لإفريقيا الجديدة (إفريقيا المسيحية):

فـي إطار مبـدأ التبرير الذي باتت الحكومـات الفرنسية تُشرف عليه في مستعمراتها الإفريقية، ويندرج ضمن المساعي الاستشراقية؛ كتـب الفيلسوف دافيـد هيوم David Hume فقـال: «إنّ إنسان إفريقيـا لا يملك شيئاً من الصناعات والعلـوم والفنون»، وقال المفكر ترولـوب[٤] A. Trollope في السياق ذاتـه موضحاً: «أنه (أي: الإفريقـي) لا يعـرف شيئاً يقرّبـه من الحضـارة التـي يعيشها زميله

---

(١) بسليح بوعلام: «الثقافة الإفريقية طموحات ومتطلبات»، مجلة الثقافة، العدد ٩٦، (ديسمبر ١٩٨٦م)، ص٢٢.

(٢) لتفصيل أكثر انظر: ألكسي دوتوكفيل: نصوص عن الجزائر في فلسفة الاحتلال والاستيطان، ترجمة وتقديم. إبراهيم صحراوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ٢٠٠٨م، ص٥١.

(٣) إن توظيف العلم لخدمة الاستعمار الفرنسي؛ كان قد تجسّد تقريبـاً في كلّ المستعمرات، ولاسيما الإفريقية، واختلفت الأساليب فقط في كون أنهـا- مثلاً- تعاملت مع منطقة الشمال الإفريقي على أساس أنها كانت تابعةً في فترات تاريخية معيّنة للحضارة الغربية (أي إفريقيا اللاتينية)، وأنّ شعوبها من الأمازيغ البربر يتشابهون- علميّاً- فعلاً مع الأوروبيين.

(٤) (١٨١٥-١٨٨٢م) كاتبٌ إنجليزي شهير، ألّف ما يزيد عن خمسين مجلداً.

الإنسان الأبيض، الذي يقلّده كما يقلّد القردُ الإنسان»[١].

أما الفيلسوف المعروف أرنولد توينبي Arnold Toynbee[٢]؛ ففي دراسته لنشوء الحضارات وتطوّرها، وتحديده لإسهامات الشعوب فيها؛ فإنه أعطى الإنسانَ الإفريقيَّ صفراً، مستنداً في ذلك الترتيب إلى العوامل العِرْقية، حيث قرّر أنّ «الإنسان الأبيض» هو الأذكى، و«الإنسان الأسود» يمثّل الغباء الكامل، ويقع في الوسط باقي الشعوب الصفراء والحمراء والسمراء، ولكن بنسب تقلّ عن إسهامات الرجل الأبيض، وتفُوق مستوى الإنسان الأسود[٣].

وظهرت تفسيراتٌ أخرى مكمِّلة: إمّا وفق مبدأ جغرافيّ أو مناخيّ أو غير ذلك، ولكنها كلّها هدفت في النهاية إلى تسويق تلك الصورة السالبة عن إفريقيا؛ لكي تُسوِّغ حملاتها الاستعمارية المسعورة، وتعطي لنفسها صورة المنقذ أو السيد «المسيح» الأوروبي، الذي يخاطر بحياته، ويضحّي بنفسه مقتحماً الأدغال الإفريقية، من أجل إنقاذ تلك «الكائنات» الحية. وهناك مَن رأى أنّ «الإنسان الإفريقي» قد ظلّ مكانه في وحشيّته البُدائية القديمة، حيث كان يرى موكبَ التاريخ يمرُّ أمامه عبر قرون لا حصر لها، وهو ذاهل لا يفقه ما يرى ولا يُدركه[٤].

واستمرت هذه الدعاوى الغربية المُغرضة في العمل، وهذا ما كان يبدو أنه يعطي الأحقية للأوروبيّين في الاستحواذ على تلك المناطق الإفريقية، ولكنهم في ذلك كانوا يتناسون كلّ تاريخ تلك الشعوب وحضارتها، ويُسقطونها من الإسهام في الزّخم والتراكم

(١) عبد الرحمان شلقم: إفريقيا القادمة: دراسة في الفن والأدب والتاريخ الإفريقي، منشورات اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام، ليبيا، ٢٠٠٨م، ط٣، ص٠٥.

(٢) توينبي (١٨٨٩- ١٩٧٥م) من أشهر المفكرين والمؤرخين في القرن العشرين، من أبرز أفكاره في نظرية تفسير تاريخ الحضارات: هو وضعه الفوارق بين المُجتمعات البدائية والمتحضرة؛ وهذه الأخيرة اعتبرها الأقلّ عدداً من الأولى، فهي تبلغُ واحداً وعشرين مُجتمعاً، اندثرَ مُعظمُها، ولم يبقَ غيرُ سبع حضارات؛ تمرُّ ستٌّ منها بدَور الانحلال، وهي: الحضارة الأُرثوذكسية المسيحية البيزنطية، والأرثوذكسية الروسية، والإسلامية، والهندوكية، والصينية، والكورية- اليابانية؛ أمّا السابعة (أي الحضارة الغربية) فلا يُعرَف مصيرُها حتّى الآن. انظر لأكثر تفصيل: صدقي عبد الله خطاب: «أرنولد توينبي»، مجلة عالم الفكر، م٠٥، ١٩٧٤م، ص٢٩٢.

(٣) شلقم، المرجع السابق، ص٠٦.

(٤) نقلاً عن: شلقم، المرجع السابق، ص٠٥.

الحضاري، وخاصّةً بالنسبة للدول والممالك الإفريقية التي اعتنقت الإسلام، وجمعتها روابطُ عديدة بالعالم الإسلامي خلال فتراته الذهبية.

وبدَوره أشار المفكر بازل ديفيدسون إلى عملية استغلال مسألة التأريخ للعنصر البشري الإفريقي، وهي إشكاليةٌ لا تزال قائمةً في ظلّ تجاهل الغرب للمراحل السابقة لحضوره بالقارة؛ فقال عن ذلك: (إنّ مخططات التاريخ الإفريقي، حتى عهد قريب، ظلّت فارغةً جرداءَ مضللةً كخرائط الجغرافيا في القرن ١٩م، ولكنّ المُؤرّخين وعلماء الآثار شرعوا يعلموننا الكثير، وأضاؤوا لنا مصابيح منيرةً تلمع فوق المخطوطات التاريخية، وهكذا اختفت من أذهاننا تلك المخلوقات الإفريقية التي قيل لنا: إنّ رؤوسها تنمو تحت أكتافها العارية! ولم يعد أحدٌ يؤمن الآن بأنّ القارة كانت مأوًى للسحالي ذات الشعور والذقون... حلّت محلّ هذه الصّور الخيالية صورٌ أخرى للإنسان بعظمته وحضارته، وبدأنا نُدرك أنّ إفريقيا- كغيرها- كانت مأواه؛ عاشَ فيها كالإنسان في كلّ مكان صغيراً حيناً وكبيراً أحياناً، شُجاعاً وجباناً؛ مزيجاً من القوة المروّعة والضعف الخائر)[٥].

٣) «الغاية تبرر الوسيلة» شعار الاستشراق:

كثيراً ما شاع تداول عبارة «فرق تسد» على أنها لسان حال الإدارة الاستعمارية الفرنسية، وبالفعل فإنّ الدراسات الاستشراقية بصفة عامّة ركزت في محاولة إيجاد الخصوصيات المفرّقة بين الشعوب المستعمَرة، والفوارق الإثنيّة واللغوية التي من شأنها إعلاء شأن البعض وإذلال الطرف الآخر. وكان من الواضح أنّ مخططات الحكومة الفرنسية تتجسّد تدريجيّاً بكلّ الوسائل المتاحة، وأنها قد تعرفت على القبائل والواحات والمسالك والآبار واللهجات والنباتات وغيرها[٦].

ولم يكن عسيراً أن يَتمّ توظيف كلّ تلك المعارف والمخطوطات التي جمعها وترجمها وحقّقها المستشرقون- كما سبق القول-، وتكاثفت الجهود خاصّةً بعد إنشاء «مدرسة اللغات الشرقية» بباريس منذ منتصف القرن ١٧م[٧]، والتي اهتمت بتزويد السُّلطة متى ما

(٥) شلقم، المرجع السابق، ص٠٨.

(٦) انظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار البصائر، الجزائر، ٢٠٠٧م، ج٠٦، ط٠٦، ص ٣٩.

(٧) وهي في الأساس مهد الاستشراق الفرنسي، حيث تأسست في البداية بغرض تكوين مترجمين باللغات العربية والفارسية والتركية، وأيضاً سفراء قادرين على العمل في الإمبراطورية العثمانية، أي أنّ مهمتها تمثلت في تدريس

شـاءت بالكفـاءات البشريـة المطلوبة فـي مجال الترجمـة والتحقيق واللغـات وغيرها، وقد عملت دومـاً بالمبدأ المكيافيللي الشهير، وذلك على جميع المستويات.

ومن جهة أخرى؛ تَمّ استحداث إدارات محليّة تشرف على المهام ذاتهـا في كلّ بلـد من أقطـار المستعمـرات الفرنسيـة؛ وُضعت تحت تصـرّف القـادة العسكريّيـن والمجموعات المختلفة مـن الموظفين، وكـذا بعنايـة المستشرقيـن مـن المترجميـن والخبـراء اللغويّيـن والسوسيولوجيّيـن وعلمـاء الأنساب والخطوط والرسـوم وغيرهم[١].

كمـا استحدثـت اللجـان العلميـة المختلفـة والجمعيـات والمجـلات المتخصّصة، ولعـلّ أبرزها «مجلة العالم الإسلامـي» التي لعبت دَوراً فاعلاً في مجال الدراسات الاستشراقية، واعتُبرت بوابة العالم الغربي نحو العالم الإسلامي[٢].

٤) التعليم الممنهج ونشر اللُّغة الفرنسية:

لقـد كان للتعليم دَورٌ أساسيٌّ وفاعل في تسهيل أداء الكولونيالية، خاصّةً أنه كان تعليمـاً مدروسـاً من حيث الأساليب والطرائق والوسائل والشريحـة المستهدفـة التـي يعنيهـا، ويمكـن توضيح ذلـك الهدف اختصاراً في الحصول بكلّ الطرق على نُخَب أهلية موالية قلبـاً وقالبـاً للمستعمـر، تُناط بها مهـامّ الوساطـة والتأثير علـى إخوانها، ولذلك باشر المستشرقون بدراسة التـراث الشعبيّ في المناطق المستعمرة، وأتقنـوا اللغـات واللهجـات المحلية، واندمجـوا بشكل كـاف في هذه الأخيرة، ومنهم مَن تزوّج منهم، أو اعتنق دينهم[٣].

بالإضافـة إلى أنّ التعليم قـد أرسى قواعد «اللُّغة الفرنسية» لدى هـؤلاء، وباتت اللُّغة الرسمية التي لا تحظى بمنافس، وأوجدت الهيئات الحكومية الفرنسية المختلفة عدّة أشكال لتفعيل استعمالات اللُّغة.

ولا تـزال إلـى اليـوم رابطـة «الفرنكوفونيـة» تحاول جاهـدةً أن تحافـظ على قوّتهـا ووجودها أمـام التوسّع الشاسع للغـة الإنجليزية، وتكمـن خطورتهـا فـي السّعـي لفصـل الأفارقة عـن كلّ مـا يربطهم بماضيهـم وحضارتهـم، وتكريـس ارتباطهـم بالثقافـة والحضـارة الفرنسيـة، فقد وجدت الإدارة الفرنسية نفسها أمام تحدّيات خطيرة؛ اقتضت بذل الجهود كافّةً لمواجهتها دون تباطؤ؛ في الوقت الذي سعت

عكف المستشرقون الفرنسيون على دراسة الإسلام في إفريقيا تحت مفهوم «الإسلام الأسود»، فتعمدوا إبراز المظاهر الوثنية عند بعض الأفارقة؛ دحضاً للمظاهر الإسلامية المتوغلة في ثقافتهم

اللغات والحضارات الشرقية وما يتصل بها من علوم مكملة، ولكنها ما انفكت أن اعتنت أيضـاً باللغات الحيّة «ذات الفائدة المعترف بها للسياسة والتجارة»، فأضيفت لغات جديدة، واندمجت مع مدرسة اللغات الشابة التي أسسها «كولبير» (J. B. Colbert) في عام ١٦٦٩م؛ لتدريب المترجمين في عام ١٨٧٤م. ولعل من أبرز وألمع خريجيها هو «أبو الاستشراق»- كما يلقب- «سلفستر دو ساسي» (S. De Sacy). انظر: سعد الله، المرجع السابق، ج٠٦، ص٣٣.

(١) انظر: أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج٠٦، ص١١.

(٢) La revue du monde musulman.
وهي مجلةٌ مهمّة، تأسست بالمغرب الأقصى، كان قد تولّى إدارتها المستشرق ألفرد لوشاتلييه، وأسست لـرؤى الاستشراق المعاصر، وقد قدّم- مثلاً- مديرها رؤيته لمؤتمر أسماه «غزو العالم الإسلامي»؛ ضمّنه خلاصةَ تصوّره لمّا يجب القيام به من قِبَل البعثات التنصيرية، وذلك في مؤتمر القـاهرة سنة ١٩١١م، وعـالج مـا أسفرت عنه الجهود المبذولة من أجل قيام إعـلام متعدّد الجنسيات لدراسة العالم الإسلام. وقد قال عن ذلك: «في اليوم التالي للثورة العثمانية (سنة ١٩١٩م)؛ بدأ التطلع بالنسبة للإسلام لعصر نهضة اجتماعية، لكن قادة الحزب الليبرالي تناسوا برنامجهم بمجرد وصولهم للسلطة». انظر: Le Chatelier : «L'islam dans l'Afrique occidentale», Revue du monde musulman, N0 06, 1911, p255.
وانظر: http://howiyapress.

(٣) هـذا لا يعني أنّ التعليم الفرنسي قد مسّ كلّ أنحاء المستعمرات، وإنما خصّ مناطق محدّدة امتلكت القدرة على الاندماج والتأثر أكثر من غيرها، ونجد تقريبـاً في كلّ المستعمرات الفرنسية السابقة بعضَ الأسر والقبائل التي اشتهرت أبـاً عن جدٍّ بخدمتها وتفانيها في سبيل الاستعمار، وهي التي آلت إليها غالبـاً مقاليد الحكم لاحقـاً بعد الحصول على الاستقلال.

فيـه لسَحْق اللغـات المحلية في العمق الإفريقي، لتجعـلَ من لغتها لغةً سائدةً لا بديل عنها[١].

وأصبحت ترصـد الجوائز والميزانيات الضخمـة للترويج للفكر الفرنكفوني والرؤى الغربيّة المتطرفـة؛ عبر الفنون الأدبيّة المختلفة، وخصوصاً في الشعـر والرواية والقصة والسينمـا والمسرح[٢]. علماً أنّ نشاطهـا لا يقتصـر علـى تحـدي الإسـلام وحـدَه، بـل إنهـا ظلّت تسعـى لنسف مـا كان يُعرف بأدب ما بعد الكولونياليـة بأكمله، كما أنّ الفرانكفونية هدفت للقضاء على حركة معاداة الفرانكفونية في جميع الميادين[٣].

والجديـر بالذكـر؛ أنّ بعضَ المستشرقين القلائل قـد التزموا بالموضوعيـة فـي أبحاثهم ودراستهـم؛ بل خدموا العلـوم في سياقها الإسلامي الإفريقي، وكانوا من أشدِّ المعارضين للأفكار الاستشراقية الاستعماريـة، منهم المـؤرخ هيكست صاحب الدراسـات الرائدة عن الإسـلام بنيجيريا (منها: سيف الحق «حيـاة الشيخ عثمان دان فوديو وزمانـه»)، وكذلـك مـوراي لاست فـي كتابـه (الخلافـة الصكتية)، وهونيك رائد التاريخ الصونغائـي، ومن أهمّ كتاباته (حركات الجهاد في القرن ٩م)، و(ألف عام من تاريخ غرب إفريقيا)[٤].

وبالعودة لدَور المستشرقيـن الفرنسيّين في عملية إعادة ترسيخ الوعـي بأهمية حضور الإنسان الأوروبي؛ نجد أنهم ساهموا بطريقة ما فـي تكريـس البُعد البراغماتي فـي السياسة الفرنسية تجـاه إفريقيا، وبالخصوص فـي مجـال التعليـم الممنهـج، حيـث عبّـر المستشرق الفرنسي ألفرد لوشاتلييه Alfred Le Chatelier: (إنه ينبغي لفرنسا أن يكون عملها مبنياً قبل كلّ شيءٍ على قواعد التربية العقلية؛ ليتسنّـى لهـا توسيـع نطـاق هذا العمـل والتثبّـت من فائدتـه. ويجدر بنـا- لتحقيـق ذلك بالفعـل- أنْ لا نقتصر على المشروعـات الخاصّة التـي يقوم بهـا الرهبان المبشّرون وغيرهم بهـا.. وأنا أرجو أن يخرج هـذا التعليـم الى حيّز الفعل ليبـثّ في معتنقي دين الإسـلام التعاليمَ المستمدّة من المدرسة الفرنسية)[٥].

٥) التنصير وأدواته:

مثّلت الحمـلات التنصيرية المتواصلة، التي جابت أنحاء القارة الإفريقيـة، ركيـزةً أساسيةً في عمل المستشرقيـن الفرنسيّين، وذلك لأنّ الديـن لطالمـا اعتُبـر موضع التأثيـر والإخضاع. ولـم يكن غريباً وجود تقاطع وظيفيٍّ في أداء المؤسّستَيْن؛ مع ملاحظة أنّ أية صعوبات محتملـة كـان يتمّ تجاوزهـا بعـد استنفاد وسائـل العمـل التنصيري المتعددة: من تعليم خاص، ومساعدات اجتماعية، والتزامات مجانية، لترقية واقع الأفارقة.. وغيرها[٦].

إنّ النزعـة الدينية التنصيرية للاستشراق الفرنسي؛ كانت سمةً واضحةً حتى بين مستشرقي العصر الحديث، فلم يستطيعوا التخلّص منهـا، وعُرف بها أبرز أعلام الاستشراق الفرنسي: من (بيربروجر)، إلـى (دو ساسـي)، ثم (لويس ماسينيون). وقد قيل عـن عمل «شيخ المستشرقيـن» المحدثيـن (سلفستـر دو ساسـي) أنه قـد غلبت على مواقفـه النزعـة التنصيريـة، و «أنّ عمـل «دو ساسـي» قـد وَفَّـقَ بين طريـق العالم وطريقة المعلّم المقدس»، وسـار على خطاه المستشرق المعـروف (لويس ماسينيون)، والذي عبّر عـن المضمون ذاته بقوله: «... إنّ الطـلاب الذيـن يأتـون إلـى فرنسا يجـب أن يُلَوَّنـوا بالمَدَنيّة المسيحية»[٧].

٦) البحث الأنثروبولوجي والتراثي:

اتجه الباحثون كذلك إلى دراسة تاريخ الإسلام بإفريقيا، وتاريخ الممالـك العظمى بها، وعمـدوا إلى تشويههما، ومن ذلـك: القول بأنّ الديـن الإسلامي دينُ بلاط لا يتعـدّى مجموعةً من الطقوس؛ إذ وُضع فـي خدمة الملوك والمشايـخ من جهة، ومن جهة أخـرى أنه لا يتعدّى ممارسةَ طقوس السحر والشعوذة؛ ليتغلغل في العمق الفكري والثقافي لهذه الشعوب[٨].

(١) بمبا، «الاستشراق ودَوره في المشروع الإمبريالي في غرب إفريقيا»، مجلة قراءات إفريقية، العدد ٣٤، (ديسمبر ٢٠١٧م)، ص٩٦.

(٢) بمبا، ص٩٦.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه، ص٩٧.

(٥) نقلاً عن: الطيب بن إبراهيم: الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر، مكتبة رحاب، الجزائر، ٢٠٠١م، ص١١٤.

(٦) وفي المناطق ذات الجاليات المسلمة الكثيرة؛ كانت سياسة الاستشراق قائمةً على أساس هزِّ صورة الإسلام وتشويهها في نفوس معتنقيه، وتصوير «المسيحية» على أنها الملجأ الأفضل. انظر: الطيب بن إبراهيم، المرجع السابق، ص٧٢. وكذا:
عمر فروخ ومصطفى الخالدي: التبشير والاستعمار في البلاد العربية، المكتبة العصرية، بيروت، ط٥٠، ١٩٧٣م ص٦٣.

(٧) نصري، المرجع السابق، ص١١٠.

(٨) بمبا، المرجع السابق، ص٩٥.

وعكفوا في الوقت نفسه على تشويه تاريخ الممالك الإسلامية وزعمائها؛ ولاسيما الممالك التي رفضت الأفكار الغربية والانقياد لإرادة الاستعمار، فوصفوها بأوصافٍ طائفية قَبَلِيّة، فالخلافة الصكتية التي أسّسها عثمان دان فوديو ما هي في نظر هنريث بارث إلا تمرّدٌ عرقيٌّ من لدن الفولبي ضدّ هيمنة الهوسا، وفي رأي هوغين في كتابه (الإمارات المحمدية بنجيريا) على أنها ثورة تخريبية قام بها الفولاني، وهي في نظر بوفيل عبارةٌ عن صراعٍ عرقيٍّ سياسي[١].

كان الأدب والفنّ حقلاً خصباً للدراسات الاستشراقية الفرنسية، ويظهر عمق التناغم بين تلك الدراسات والمشروع الإمبريالي- مثلاً- في ظهور حقلٍ دراسيٍّ حديث باسم الأدب الاستعماري، حيث صرّح بعض روّاده بالهدف الاستعماري المتوخّى منه، وأكّدوا أنه «تضمّن قيمةً إثنوغرافية معبّرة عن نفسيات الأعراق في المجال الاستعماري، وتلك معرفةٌ ملزمةٌ لهيمنتنا»[٢].

ويظهر البعد الاستشراقي الكولونيالي- أيضاً- في الاهتمام الشديد بالأساطير والقصص، حيث أظهروا ملامحها الوثنية، وكان القساوسة قد عكفوا على جمع الحكم والأمثال والأشعار الإفريقية، وعملوا على إدراجها في الدروس المسيحية. كذلك فإنهم تفانوا في دراسة اللغات الإفريقية، ووضع قواميس لكلماتها، وكتابتها بحروفٍ لاتينية، وترجمة الكتاب المقدس إليها، والكلُّ كان يصبّ في خدمة المشروع الاستشراقي الاستعماري[٣].

٧) الاستنزاف المادي بدعوى نشر الحضارة:

لا يمكن فصل علاقة الاستشراق بالاستعمار، سواء في إطارها الأوروبيّ العام أو الفرنسيّ الخاص، وعن المحيط الاجتماعي والسياسي والجغرافي والقومي والتاريخي والثقافي: «فالاستشراق والاستعمار الفرنسيّ هما أبناء وطنٍ واحد ومجتمع واحد وثقافة واحدة وتاريخ ومصير واحد؛ يعكسان تفوّق فرنسا، فمصلحتهما مشتركة». والأمر ينطبق على الاستشراق والاستعمار الأوروبي؛ إلا أنّ الاستعمار والاستشراق الفرنسيّين كانَا أكثر تحالفاً وانسجاماً ودقّةً في استراتيجيتهما المشتركة، وأكثر خطراً وتهديداً في أهدافهما، وأكثر استعمارية من غيرهما «... فالعلاقة بينهما كانت عضويةً

حقّقت السياسة الاستعمارية الفرنسية «التغريبية» أهدافها لدى فئةٍ معتبرة من الشباب الإفريقي، فألحقت الفساد بعقولهم، وملأتها بالأفكار والعُقد الشاذة، فأصبحوا مسلوبي الهُوِيّة

جسداً وروحاً»[٤].

وبناءً على هذا؛ فقد راهنت فرنسا على مستشرقيها وعلى أدوارهم، كما بالقدر نفسه على جيوشها العسكرية، بل كانوا في طليعة الجيوش أدلّاء يقودونها ويراقبونها، ومرافقين لحملاتها، مقدّمين لها الخدمات والخبرات والمعلومات الضرورية، فقد اعتُبر المستشرق «الخبير المدرّب، والمجهّز تدريباً وتجهيزاً خاصَّين، أبعاداً إضافية، وكان يمكن اعتبار المستشرق العميلَ الخاصّ للقوة الغربية»[٥].

إنّ الاستشراق واحدٌ في شكله العام، وفي منطلقاته الغربية، وله الأدوار الثقافية نفسها، وهو في الوقت نفسه يختلف من دولةٍ إلى أخرى، وتوجد فيه استشراقاتٌ عديدة؛ فالاستشراق الفرنسي يختلف عن نظيره السويدي والأمريكي والإنجليزي وهكذا، وهو مختلفٌ من عصرٍ لآخر. وما تجدر الإشارة إليه: أنّ استخلاص خصائص كلّ مدرسة استشراقية؛ يوجب على الباحث التطرق بالتفصيل وبيان إنتاج تلك المدارس، وتأصيلها تاريخيّاً، وتتبّع تطوّرها، وبيان خصائص منهجية كلٍّ منها[٦].

إنّ خصوصية الاستشراق الفرنسي لا ترجع لطبيعة الفرنسيّين، ولا تعود لموضوعٍ استشراقيٍّ اختصّوا به عن غيرهم، أو لعصرٍ سادوا فيه؛ لكنّ الأمر عائدٌ لموقعهم الجغرافي المجاور للإسلام، وكذلك سياسة فرنسا الثقافية المهيمنة وأهدافها الخاصّة المتبّعة في

(١) المرجع نفسه.

(٢) مهدي صالح: «الفرنكوفونية ومستقبل الثقافة في إفريقيا»، مجلة دراسات إفريقية، العدد ١٧، ١٩٩٧م، السودان، ص٩١.

(٣) بمبا، المرجع السابق، ص٩٦.

(٤) ابن إبراهيم، المرجع السابق، ص (١٦٢-١٦٣).

(٥) ابن إبراهيم، المرجع السابق، ص (١٧٧-١٧٨).

(٦) ساسي، المرجع السابق، ص١١٦.

المنطقة في القرنَيْن الأخيرَيْن خاصّة[١].

ويمكن إجمال الخصائص المميزة للمدرسة الفرنسية في مجموعة النقاط الآتية:

– تميّز الاستشراق الفرنسي في مجمل توجهاته بالطرح التاريخي الفيلولوجي، وروحه الصليبية التنصيرية، وأهدافه الاستعمارية، ووصايته وهيمنته الثقافية[٢].

– أولى الاستشراق الفرنسي أهميةً بالغةً باللغة العربية وفقهها ونحوها وآدابها، وبرزوا في هذا المجال بروزاً واضحاً، الأمر الذي ظهر في إنتاجهم ومؤلفاتهم في هذا المجال، وأضحت مجال تخصّص العديد منهم من أمثال المستشرق بوستيل POSTEL[٣].

– إنّ إجراء مقارنة بين الاستشراق الفرنسي والأوروبي؛ يخلص إلى خاصّيةٍ مهمّة تُميّز الاستشراق الفرنسي عنه، وهي الاهتمام والتركيز على الخصوصية الثقافية والهُويّة الوطنية ومهاجمتها، والاهتمام بالمواضيع العامّية واللهجات المحلية والعادات والتقاليد، والتمايز الثقافي بين السكان وبين الجهات والأقاليم والقبائل والطوائف[٤].

– إنّ ما ميّز الاستشراق والمستشرقين الفرنسيّين بالخصوص في الغالب تعصُّبهم الشديد ضدَّ الإسلام والرسول صلى الله عليه وسلم، والاهتمام بالتاريخ الروحي للتاريخ الإسلامي، وهو ما يؤكده العديد من الباحثين، إذ إنه من النادر أن نقرأ لمستشرقٍ فرنسيٍّ شيئاً طيّباً عن رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، أو يدرسه دراسة موضوعيةً بعيدةً كلّ البُعد عن الذاتية والتعصُّب الديني، وإن حدث وقال شيئاً حسناً عنه وعن الإسلام؛ فإنه يتحفّظ في أقواله تحفّظاً ملاحظاً!

– ضمّ الاستشراق الفرنسي في صفوفه الكثير من الضباط العسكريّين، فكان العديد منهم مجنّدين في جيوش الاحتلال الناطقين باسمه بين السكان، فالعلاقة الوطيدة بين الثلاثي: (الاستشراق والاستعمار والإمبريالية) هي علاقةٌ فكريةٌ وثقافيةٌ وروحيةٌ ونفسية، وهي خاصيةٌ امتاز بها المستشرقون الفرنسيّون عن المستشرقين البريطانيّين– مثلاً–[٥].

– تُعدّ فرنسا أول دولة أوروبية تتواصل مع العرب المسلمين؛ بالرغم من أنّ بدايات التواصل كانت «تلقائية» بطيئة، تمّت على يد أفراد حرّكتهم الرغبة والفضول في تعلّم لغة العرب والمسلمين وعلومهم، وبعض أوجه الحضارة الناشئة والمتصاعدة بسرعة على الحدود الفرنسية، فقوّة الدولة الإسلامية في الأندلس وحداثة حضارتها وريادتها وقربها الجغرافي منها شكّل حافزاً مشجّعاً بل مغرياً للاحتكاك بها والنهل منها[٦].

معالم الدراسات الاستشراقية الفرنسية في إفريقيا:

يمكن تحديد أهمّ معالم الدراسات الاستشراقية الفرنسية في إفريقيا بدايةً؛ في أنّ الدّين الإسلامي كان قد حظي باهتمام الدراسات الاستشراقية الفرنسية؛ لكونه الدين المنتشر بكثافة في أغلبية مستعمراتها جنوب الصحراء؛ الأمر الذي أكده الحاكم العام الفرنسي لمستعمرة السنغال (ويليام بونتي) بقوله: «إنّ من واجبنا دراسة المجتمع المسلم في مستعمراتنا بكلّ تفاصيله... سوف نجد في هذه الدراسة الأسس الثابتة والتوجهات الأكثر ملائمة لخططنا وقراراتنا تجاه المسلمين»[٧].

وبناءً على هذه التوصيات وغيرها؛ عكف المستشرقون الفرنسيون على دراسة الإسلام في هذه البقاع تحت مفهوم «الإسلام الأسود»، وهو مصطلحٌ أطلقه الباحث بول مارتي، وملخصه: «أنّ الإسلام بإفريقيا ينتمي إلى الرؤية الإفريقية التقليدية والعادات والديانة الإفريقية القديمة؛ أكثر من انتمائه إلى الأصل المعروف المتوارث من الجزيرة العربية، وهذه الاختلافات– بزعمهم– عميقةٌ واسعةٌ في العقائد والعبادات والمعاملات، وفي الرؤية الكلية عن الكون والحياة»[٨].

وتأكيداً لتلك الفكرة السابقة عن الإسلام (الأسود)؛ عكف المستشرقون على إبراز المظاهر الوثنية عند بعض الأفارقة؛ دحضاً للمظاهر الإسلامية المتوغلة في ثقافتهم، فعلى سبيل المثال: قام الباحثان غريول وجيرمين بدراسات مستفيضة عن علوم الفلك والكونيات عند مجموعة «دوغون» (المتواجدة شرق مالي)؛ متحاشياً الإشارة إلى «بانجاغارا» الإسلامية الواقعة وسط بلاد «دوغون»[٩].

كما أنّ من مظاهر الغزو الثقافي المنظّم على الإسلام، التي

(١) ابن إبراهيم، المرجع السابق، ص٨٨.

(٢) المرجع نفسه، ص٨٩.

(٣) ساسي، المرجع السابق، ص١٠٩.

(٤) ابن إبراهيم، المرجع السابق، ص٣١٤.

(٥) الطيب بن إبراهيم، المرجع السابق، ص١٧٥.

(٦) بن إبراهيم، المرجع السابق، ص (٢٣١–٢٣١).

(٧) آدم بمبا: مرجع سابق، ص٩٤.

(٨) بمبا، المرجع السابق، ص٩٤.

(٩) المرجع نفسه.

حمل لواءها المنصِّرون والمستشرقون في المنطقة، هو محاربة الأسماء العربية، حيث توجد هذه الأسماء بكثرة في بلاد يوربا، وهي أسماءٌ تتصل بأسماء الآلهة التي كانوا يعبدونها قبل إسلامهم مثل: أوغن وشنغو، ولم يتفطن لهذا الأمر كثيرٌ من العلماء؛ بل تبعهم في ذلك بعض المسلمين المثقفين[١].

وما تجدر الإشارة إليه: أنه لا تزال توجد في غرب إفريقيا- إلى يومنا هذا- ألقابٌ ترادف أسماء معيّنة، وقد أجاز العلماء منها ما كان خالياً من العيوب ومن أسماء الجاهلية، في اللغة الفلانية، أمثال: (بلو وثيو وغطاطو) من أسماء الرجال، و(غوغو ونانا) من أسماء الإناث[٢].

وفي الوقت نفسه؛ عمل هؤلاء المستشرقون على إبعاد سكان تلك المناطق عن كلّ ما يربطهم بأصلهم، ومحاولة هدم ثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم؛ فتغيرت الأواني الإفريقية إلى أوروبية؛ بل تغيّرت حتى ألعابهم التقليدية (مثل: لعبة التماسيح، وقفز النعاج، وسباق الخيل)، والتي كانت تعبيراً عن روح هذه الشعوب البريئة والسمحة[٣].

وتمّت الاستعانة ببعض القادة العسكريّين والإداريّين الذين عملوا بمناطق استعمارية أخرى، وتمّ نقلهم إلى إفريقيا لتطبيق السياسة العنصرية، واحتواء المسلمين عبر زعماء الدين ومشايخ الصوفية والطبقة المثقفة والمؤثّرة؛ ونجد منهم- مثلاً- كُلّاً من «كابولاني» و«دوبون» وآخرون[٤].

خاتمة:

في الختام.. يمكن القول بأنّ هذه الدراسة المقتضبة؛ قد هدفت بالأساس إلى محاولة نفض الغبار عن أحد الموضوعات المميزة والمهمّة في تاريخ القارة الإفريقية، التي لا تزال تراوح مكانها بين مظاهر الفقر والأوبئة والتخلّف والمجاعات وغيرها، ولا تزال حكوماتها تتغنّى حيناً بالنضال التحرري ضدّ الاستعمار، وذلك برفع شعارات مناسباتية برّاقة، وبين محاولة إيجاد حلول براغماتية للتعايش مع الواقع المرير لمواطنيها تارةً أخرى.

ولعلّ أبرز النتائج والتوصيات المطروحة في هذا الصدد هي: ضرورة إعادة كتابة التاريخ الموضوعي للقارة الإفريقية وفق البحوث والدراسات الرصينة؛ التي تبتعد عن أن تكون مجرَّد أداة تستحضر آليات الاستعمار وأذنابه، وكذا التصدي لكلّ محاولات تشويه الدين الإسلامي، الذي أكّد بعضهم- تضليلاً- اختلافه عن الإسلام الأول (بالجزيرة العربية)، ووصفه بـ«الإسلام الأسود».

نجح الاستشراق الفرنسي في دراسة كلّ مقوّمات الشخصية للشعوب الإفريقية، من لغة وعادات وتقاليد، سعياً لفصلهم عن ماضيهم وحضارتهم، ولتكريس إدماجهم بالثقافة والحضارة الفرنسية الغربية. ولذلك بات من الضروري إعادة النظر- بدقّة وحيادية- في ذلك التراث الذي خلّفه المستشرقون، والعمل على مراجعته وتحقيقه من جديد وتصحيحه بأقلام إفريقية وطنية جادّة، ووفق نمط مدروس ومؤسس.

لقد حقّقت السياسة الاستعمارية الفرنسية «التغريبية» أهدافها لدى فئة معتبرة من الشباب الإفريقي، فألحقت الفساد بعقولهم، وملأتها بالأفكار والعُقد الشاذة، فأصبحوا مسلوبي الهُويّة.. لا هُمْ حافظوا على أخلاقهم ومقوماتهم؛ ولا استطاعوا أو سُمح لهم بالاندماج في المجتمع الفرنسي، وهو بيت القصيد في السياسة الاستشراقية الفرنسية.

ولذلك توجّب التركيز على التوعية والتعليم الخاصّ، الذي يستهدف تعزيز قيم الهُويّة والقومية، ويغرس من جديد الروح المكافحة في سبيل التحرر الفكري والنفسي من عُقد النقص أمام الآخر.

تفطّن المستشرقون لأهمية التاريخ في حياة الشعوب؛ فسعوا إلى تشويه تاريخ الممالك الإسلامية وزعمائها في إفريقيا. وقد شكّل الأدب والفنّ وغيرهما مجالَيْن خصبَيْن للدراسات الاستشراقية، حيث اهتموا بالأساطير والأمثال والحكم وأدرجوها في الدروس المسيحية.

ولذلك أيضاً لا يزال موضوع الاستشراق الأوروبي في إفريقيا جنوب الصحراء حقلاً خصباً للبحث والدراسة، وخصوصاً أنه لم يحظ إلى يومنا هذا بالاهتمام والانتباه من قِبَل الباحثين العرب، حيث ما زالت الدراسات عنه شحيحةً وقليلةً إذا ما قورنت بنظيرتها المتعلقة بالاستشراق الأوروبي في المشرق الإسلامي مثلاً ■

(١) موسى عبد السلام مصطفى أبيكن: «الغزو الفكري الاستعماري على التراث العربي في غرب إفريقيا»، مجلة القسم العربي، العدد ٢١، ٢٠١٤م، باكستان، ص٨٩.

(٢) موسى عبد السلام، المرجع السابق.

(٣) الناصر عبد الله أبو بكرو: «مقومات الثقافة السنغالية: دراسة تطبيقية للإسلام والاستعمار»، مجلة دراسات إفريقية، العدد ٢٥، ٢٠٠١م، السودان، ص١٧١.

(٤) أحمد أمل محمد إمام: الإثنية والنظم الحزبية في إفريقيا (دراسة مقارنة)، د.ط، المكتب العربي للمعارف، مصر، ٢٠١٥م، ص١٢٥.